مَنال وحسين
(2)

الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمَةُ

الكاتبة الراحلة



أَمَانِي العَشْمَاوِي
(رحمها الله)

منال وحسين (2)

الطريقُ المُستقيمَة

أَمَانِي العَشْمَاوِي

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاه طولَ الْوقتِ، فأنا الأختُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يَقترِحُ علَيَّ أنواعًا مِنَ الألعابِ تَنْتَهي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنّ أخي حسينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعُقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يَقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

ذاتَ يَوْمٍ، اقْترحَ أخي أن نَتَزَلَّجَ على سورِ دَرَجِ الْبَيْتِ، فرُحنا نَصْعَدُ الدَّرَجَ إلى الطّابِقِ الأَوَّلِ، ثمَّ نَجْلِسُ على السّورِ وننزلِقُ إلى الطّابِقِ الأرْضيِّ، فنقفِزُ مِنْ فَوْقِ السّورِ.. ونَصْعَدُ للطّابِقِ الأَوَّلِ مَرَّةً أُخْرَى.. ثمَّ انْضَمَّ إلَيْنا أولادُ جيرانِنا الذين كان مسموحٌ لنا اللَّعِبَ معهم حَتَّى أذانِ الْعِشاءِ.. فَرُحْنا جميعًا نَتَزَلَّجُ على سورِ السُّلَّمِ.

ثُمَّ قرَّرَ أخي أنْ يَتَمَدَّدَ علَى بَطْنِهِ فَوْقَ السّورِ، ثم يَنْزَلِقَ مِنَ الطّابقِ الأَوَّلِ إلى الأرْضِيّ، وفعلَ ذَلِكَ فِعْلاً، وقفزَ في النّهايَةِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَلَّدْتُهُ وتَمَدَّدتُ على بطني وانْزَلَقْتُ، وقبلَ أنْ أَنْتَبِهَ أو أَسْتَعِدَّ للقفزِ، انْتهَى السّورُ وسقطتُ على وجهي على آخرِ درجاتِ السُّلَّمِ.. فصرختُ مِنَ الألمِ، وفي الْحالِ ظهرَ على جَبْهَتي تَجَمُّعٌ دَمَوِيٌّ أزرقُ اللَّوْنِ، يُشْبِهُ الْكُرَةَ الصَّغيرةَ، مِنْ أثَرِ السُّقوطِ. جلسْنا على دَرَجَةِ السُّلَّمِ الأخيرَةِ، أنا أَبْكي ونَهْلَةُ بنتُ جيرانِنا تُدَلِّكُ لي جَبْهَتي، وأسْرَعَ أخي حُسَينٌ وأحْضَرَ لي لفافَةً بها ثلجٌ وضعَها مكانَ التَّجَمُّعِ الدَّمويِّ على جَبْهَتي.

بعدَ فترةٍ، انْتَهَيْتُ مِنَ الْبُكاءِ وقُمْتُ لأَلْعَبَ، فالْيَوْمَ الْخَميسُ وليسَ مِنَ الْمعقولِ أنْ نَقْطَعَ لَعِبَنا معَ أولادِ الْجيرانِ بسببِ هَذا الْحادِثِ الْبسيطِ، فأكْمَلْنا ألعابَنا في الطّابقِ الأرْضِيِّ في مدخلِ الْبَيْتِ.

بعدَ حوالي ساعةٍ، نظرَتْ نهلةُ جارتُنا في وَجْهي وصاحتْ: "الْحَقي يا منالُ، عَيْنُكِ الْيُمْنَى ونِصْفُ وَجْهِكِ تَحَوَّلا إلى اللَّوْنِ الأزرقَ".

نَظَرْتُ في مِرْآةِ الْمَدْخَلِ ففوجِئْتُ أنا الأُخْرَى، وكانَ أوَّلَ ما فكَّرْتُ فيه أنْ أَدْخُلَ بَيْتَنا وأعْتَرِفَ لأُمّي بما حدثَ.

لَكِنَّ حُسَينًا قالَ لي: "سَوْفَ تُعاقِبُكِ وتمنعُكِ مِنَ التَّزَلُّجِ على سورِ السُّلَّمِ"..

فتردَّدتُ قليلاً.. ثُمَّ قُلْتُ: "ماذا أفعلُ"؟

قالَ حُسَينٌ: "هيّا نَطْلي وُجوهَنا كُلَّها باللَّوْنِ الأزرقِ، عِنْدَئذٍ سَوْفَ يَتَصَوَّرونَ أنَّ وَجْهَكِ مَطْلِيٌّ ولَيْسَ مُصابًا، فلن يَغْضَبوا ولن يُعاقِبوكِ".

لا أدري كَيْفَ اقْتنعْتُ بكلامِ أخي الصَّغيرِ، رُبَّما لأنَّ أولادَ الْجيرانِ قد اقْتنعوا به هُمْ أَيْضًا.

وفي الْحالِ، انْطلقَ أخي حُسين مع طارقِ ابنِ جيرانِنا إلى بيتِنا، فأحْضَرا عُلْبَةَ الألوانِ والْفُرَشِ، وأسْرَعَتْ نهلةُ إلى بَيْتِها فأحْضَرَتْ كوبَيْنِ بِهِما ماءٌ، وجَلَسْنا أسْفَلَ السُّلَّمِ في الطّابِقِ الأرْضِيّ، ورُحنا نَطْلي وُجوهَنا باللَّوْنِ الأزرقِ الدّاكِنِ.. وبالرَّغْمِ مِنْ حِرْصِنا الشَّديدِ، فقد تَلَطَّخَتْ مَلابِسُنا وأَيْدينا وأرْجُلُنا، والأرْضُ كَذَلِكَ.

انْتَهَيْنا مِنْ أعْمالِنا الْفَنيَّةِ مَعَ سَماعِنا لأذانِ الْعِشاءِ.. فَتَرَكْنا الألْوانَ والْفُرَشَ والْمِياهَ تَحْتَ السُّلَّمِ.. وعُدْنا إلى بُيوتِنا.

فَتَحَ لنا أبي بابَ الْبَيْتِ، وظَهَرَ على وَجْهِهِ أَثَرُ الْمُفاجَأَةِ مِنْ مَنْظَرِنا، فَرَفَعَ حاجِبَيْهِ في دَهْشَةٍ، فانْفَلَتَ مِنّي السُّؤالُ: "ماذا يُدْهِشُكَ يا أبي"؟؟

قالَ أبي: "هل كُنْتُما تَلْعَبانِ لُعْبَةَ الْحَرْبِ"؟

ارْتَبَكْتُ وقُلْتُ: "لا.. وَلَكِنْ..".

فقاطَعَني: "أَسْرِعا واسْتَعِدّا لِلْعَشاءِ".

هَذِهِ طَبيعَةُ أبي، لا يَقومُ بأيَّةِ ردَّةِ فِعْلٍ مُتعَجِّلَةٍ، وإنَّما يَتأَنَّى ويُفكِّرُ ويَبْحَثُ الْمَوْضوعَ مَعَ نَفْسِهِ ومَعَ أُمّي قَبْلَ أنْ يُكَلِّمَنا في أيِّ شَيءٍ.

أَسْرَعْنا إلى غُرْفَتِنا فَبَدَّلنا ملابِسَنا بِأُخْرَى غَيْرِ مُبَقَّعَةٍ باللَّوْنِ الأزرقِ، ثُمَّ غَسَلْنا أَيْدِيَنا، مُحاوِلِينَ إزالَةِ آثارَ اللَّوْنِ الأزرقِ مِنْها.. دونَ أنْ نَضَعَ نُقْطَةَ ماءٍ واحِدَةٍ على وُجوهِنا.. ثُمَّ سِرْنا مُتَسَلِّلَيْنِ إلى الْمَطْبَخِ وجَلَسْنا على الْمائِدَةِ، كُلٌّ في مكانِهِ دون كلامٍ أو صِياحٍ أو ضَحِكٍ.. أو حِكاياتٍ.

جاءَ أبي وجلسَ، وجلسَتْ أُمّي وراحا يَأْكُلانِ دون أنْ يَنْظُرا إلَيْنا أو يُعَلِّقا على لَوْنِ وَجْهَيْنا.

لا أدْري كَيْفَ أَكَلْتُ عَشائي ولا ماذا أَكلتُ مِنْ شِدَّةِ الارْتِباكِ، ودونَ أنْ يَنْطِقَ أيٌّ مِنا كَلِمَةً واحِدَةً.. قُمْنا فغَسَلْنا وَجْهَيْنا مراتٍ ومراتٍ.. ثُمَّ انْسَحَبْنا إلى غُرْفَتِنا مُباشَرَةً.

غُرْفَتُنا كبيرةٌ جدًا، أكبرُ غُرْفَةٍ في الْبَيْتِ.. مُقَسَّمَةٌ إلى قِسْمَيْنِ يَفْصِلُهُما دولابان (خِزانَتان) أحدُهُما مُوَجَّهٌ ناحِيَتي، والآخرُ مُوَجَّهٌ نحو قِسْمِ حُسَيْنٍ.. رُحْنا نَتَهامَسُ مُتَعَجِّبَيْنِ من تجاهُلِ أُمّي وأبي لِمَنْظَرِ وَجْهَيْنا.. ونتساءلُ إن كانا يَنْوِيانِ أن يُعاقِبانا بعقابٍ مجهولٍ لم نُجَرِّبْهُ من قبلُ.

في صَباحِ الْيومِ التّالي، جلستْ أُمّي على سَريري تُمَشِّطُ لي شَعْري وتَجْدِلُهُ، كما تفعلُ كُلَّ يَوْمٍ.. وفَجْأةً، سَأَلَتْني: "ماذا أصابَ وَجْهَكِ"؟

وفي الْحالِ، حَكَيْتُ لها الْقِصَّةَ كامِلَةً بما فيها ما فَعَلْناهُ بالألْوانِ.

سَكَتَتْ أُمّي طَويلاً.. حَتَّى كِدْتُ أَسْأَلُها: "كَيْفَ سَتُعاقِبينا؟"

وأخيرًا، قالتْ بهُدوءٍ: "سَوْفَ يَأْخُذُكِ أبوكِ إلى الطَّبيبِ الآن، لِيَتَأَكَّدَ أنَّ كُلَّ شَيءٍ على ما يُرام".

تَنَفَّسْتُ بارْتِياحٍ، وشكرْتُها وقُمْتُ راكِضَةً لأحْكي لأخي ما حَدَثَ، فوَجَدْتُهُ خارِجًا مِنْ غُرْفَةِ أبي،

فقُلْتُ لَهُ: "أُمّي لَمْ تُعاقِبْني".

فقالَ لي: "وأبي قالَ لي إنَّ هُناكَ طَريقَةً سَهْلَةً لِعِلاجِ الْمُشْكِلاتِ التي تَحدُثُ لنا".

سألْتُ بِلَهْفَةٍ: "ما هِيَ هَذِهِ الطَّريقَةُ"؟

قالَ: "الطَّريقُ الْمُسْتَقيمَةُ.. أنْ نَعْتَرِفَ بالْحَقيقَةِ".

هَزَزْتُ رأسي مُوافِقَةً..

في يَوْمِ الْخَميسِ التّالي، جاءَ أَوْلادُ عَمّي لِزِيارَتِنا، وبعدَ الغَداءِ خَرَجْنا مع أولادِ جيرانِنا لِنَلْعَبَ في الْحَديقَةِ الْعامَّةِ المربعة الْقَريبَةِ مِنْ بَيْتِنا. فَلَعِبْنا الاسْتُغُمّايَةَ، والْقِطَّةَ الْعَمْياءَ، ثُمَّ اقْتَرَحَ حُسَينٌ أنْ نَلْعَبَ لُعْبَةَ الْفُرْسانِ الشُّجْعانِ، وَهِيَ أنْ يُمْسِكَ كُلٌّ مِنا سَيْفًا، عِبارَةً عَنْ فَرْعِ شَجَرَةٍ أو عودِ غابٍ أو قِطْعَةَ خَشَبٍ مُسْتَطيلَةٍ، ويُطارِدُ بَعْضُنا بَعْضًا ونَحْنُ نَتَبارَزُ.

أثْناءَ الْمُبارَزاتِ، أصابَ طارِقٌ، ابنُ جيرانِنا، أخي حُسَينًا في ذِراعِهِ الْيُسْرَى، فَجَرَحَهُ.

تَوَقَّفَ طارِقٌ في الْحالِ، وتَجَمَّعْنا حَوْلَ حُسَينٍ لِنَرَى إصابَتَهُ، لَكِنَّهُ ظَلَّ يُرَدِّدُ: "إنَّها لا شَيء، يُمْكِنُني أنْ أُتابِعَ الْمُبارَزَةَ". لَكِنَّ نهلةَ تَدَخَّلَتْ قائِلَةً: "لابُدَّ أنْ نَتَأَكَّدَ أنَّ الْجُرْحَ لَيْسَ مُلَوَّثًا".. وهُنا وافَقَ الْجَميعُ، فأُمُّها وأبوها طَبيبانِ، ولابُدَّ أنَّها تَفْهَمُ في الطِّبِّ أَكْثَرَ مِنّا.

ذَهَبْنا جَميعًا إلى الصَّيْدَلِيَّةِ الْمُجاوِرَةِ لِبَيْتِنا، وفَحَصَ الصَّيْدَلِيُّ جُرحَ حُسَينٍ ونَظَّفَهُ وغَطّاهُ بالشّاشِ، ثُمَّ رَبَطَهُ وطَمْأَنَنا إلى أنَّهُ غَيْرُ مُلَوَّثٍ..

في طَريقِ الْعَوْدَةِ، قالَ طارِقٌ: "ماذا سَتَقولُ لأُمِّكَ وأبيكَ يا حُسَينُ".

وهُنا، ظَهَرَتْ عَبْقَرِيَّةُ حُسَينٍ في الْخُروجِ مِنَ الْمَشاكِلِ.

قالَ: "عِنْدي فِكْرَةٌ.. نَشْتَرِي كُلُّنا مِنَ الصَّيْدَلِيَّةِ أَرْبِطَةً مِنَ الشّاشِ مِثْلَ رِباطي، وتَضَعونَه على المكانِ الْمُماثِلِ لجُرْحي، وإذا سَأَلَنا أَحَدٌ عَمّا أصابَنا نَقولُ إنَّنا كُنّا نَلْعَبُ.. وهَكَذا لا نَكْذِبُ، فَقَدْ كُنّا نَلْعَبُ فِعْلاً، وأُصِبْتُ أَثْناءَ اللَّعِبِ".

لا أدْري كَيْفَ اقْتَنَعْتُ بِفِكْرَةِ أخي حُسَينٍ، ونَسيتُ أنّي قد وَعَدتُ نفسي أنْ أَلْجَأَ إلى الطَّريقِ الْمُسْتَقيمَةِ لِحَلِّ الْمَشاكِلِ.

وهَكَذا عُدْنا إلى الْبَيْتِ وقد رَبَطَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا ذِراعَهُ الْيُسْرَى بِرِباطٍ مِنَ الشّاشِ. فتحَ لنا أبي الْبابَ، فوَجَدَ أذْرُعَنا الْيُسْرَى كُلَّها مَرْبوطَةً في الْمَكانِ نَفْسِهِ.. فَضَحِكَ وقالَ: "ماذا أصابَكُمُ الْيَوْمَ".

ارْتَبَكْتُ، فانْطَلَقَ أخي يَقولُ: "كُنّا نَلْعَبُ".

أكْمَلَ أبي: "تَلْعَبونَ حَرْبًا ؟"

سَكَتَ أخي، فَقُلْتُ أنا: "نعم.. نَلْعَبُ حَرْبًا"

فهَزَّ أبي رأسَهُ وسَمَحَ لنا بالدُّخولِ.. فدَخَلْنا، وأكْمَلْنا لَعِبَنا مع أبناءِ عمّي وأبناءِ الجيرانِ حتى حانَ مَوْعِدُ الْعَشاءِ، فأكَلْنا.. ثُمَّ انْصَرَفَ الْجَميعُ إلى بُيوتِهِم.

بعدَ خُروجِ الضُّيوفِ، الْتَفَتَ أبي نَحْوَ حُسَينٍ وقالَ لَهُ: "هل أنْتَ مُتَأَكِّدٌ أنَّ ما قُلْتَهُ لي هُوَ الطَّريقُ الْمُسْتَقيمَةُ لِحَلِّ الْمَشاكِلِ"؟!

قالَ أخي بِصَوْتٍ هامِسٍ: "لا"!!

سألَ أبي بِهُدوءٍ: "ماذا حَدَثَ"؟

قالَ حُسَينٌ: "كُنّا نَتَبارَزُ، وجُرِحَ ذِراعي".

فانْطَلَقْتُ أنا أقولُ: "وذَهَبْنا إلى الصَّيْدَلِيِّ فَنَظَّفَ الْجُرْحَ وطَمْأَنَنا".

هزَّ أبي رأسَهُ، ثُمَّ أشارَ لنا، بِصَمْتٍ، أنْ نَدْخُلَ غُرْفَتَنا.. فَدَخَلْناها مُسْرِعَيْنِ دونَ أنْ نَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ.

كُنّا نَعْرِفُ أننا نَسْتَحِقُّ الْعِقابَ، لأننا لم نَلْجَأْ إلى الطَّريقِ الْمُسْتَقيمَةِ لِحَلِّ الْمَشاكِلِ.. فَحَمَدْنا اللهَ على أنَّ غَضَبَ أبي لم يَزِدْ على ذَلِكَ.